

# عبد العزيز الرفاعي لها عرفته



أذكر متى تعرفت إلى ذلك الأديب العصامي  
النبيل، ولكنني على يقين أنني أعجبت به  
وبندوته الخميسية في أول حضوري فيها ..

السند

وكنت على يقين أن مفتاح شخصيته هو النبيل قبل كل  
شيء، فهو نبيل في كلامه، ونبيل في أفعاله، ونبيل في تعامله  
مع الصغير والكبير، ومع من يعرف ومن لا يعرف ممن  
يلقاهم في درب الحياة.

وما ذكرت قط قول ابن المقفع: «كان لي أخ من أعظم الناس  
في عيني، وكان رأس ما عظمه عندي صغر الدنيا في عينيه».  
إلى آخر ما ذكره ابن المقفع من خصال صديقه إلا تمثلت  
خصال الرفاعي التي تتراءى فيه دون تكلف ولا تصنع.



بقلم: د. عبد القدوس أبو صالح

ومن ذلك أني غضبت أشد الغضب عندما تعرض أحد الأصدقاء الفضلاء إلى أحد كتبي، وكان قاسياً في نقده بعيداً عن الموضوعية في كثير من مآخذه، ولما علم الرفاعي بعزمي على الرد انتحى بي في جانب من ندوته بعد انصراف الجميع ليقول لي: «علمت بعزمك على الرد على من تعرض لك، ولكني أرجوك أن تترفع عن هذه الصفائر».

وتشهد الحادثة التالية المشهورة على أن الأستاذ الرفاعي لم ينصحني إلا بما يؤمن به، ولم يحب لي إلا ما يحب لنفسه، بل ما ارتضاه لنفسه في موقف جدير بأن يسجل بماء الذهب، ويذكر في تاريخ هذا الرجل العظيم حقاً، ذلك أن موقفه ذاك لا يسع أن يقفه إلا أمثال الرفاعي ممن آتاهم الله خصلة الترفع والتعفف والقدرة على ضبط النفس.

وخلاصة تلك الحادثة أن نادي جدة الأدبي دعا إلى حفلة لتكريم الرفاعي الذي يعد من رواد الأدب السعودي، وكان الخطباء يتبارون في الثناء عليه وتعداد خصاله وذكر مكانته في الأدب إلى أن وقف على المنبر أحد الأدباء الذي

وعلى ذلك فإن لك أن تضيف إلى نبلة تعففه وترفعه وتواضعه حتى تظن به الضعف، ورقته ولطفه حتى تظن به التكلف، وبشاشته وانطلاق أساريه حتى كأنه لم يغضب ولم يقطب جبينه قط.

ولست أطلق القول جزافاً فيما أسلفت، ولي لأصحابه وجلسائه شواهد على ذلك كله، وإني لأسوق بعضها على سبيل التمثيل، إذ هي ديدنه الذي استفاضت بها أخباره.

ومن ذلك أنه يقبل على المجلس من جلسائه بكل مشاعره، حتى يظن كل منهم أنه وحده الأثير والمفضل لديه على أصحابه جميعاً.

ومن ذلك أن شويعراً لبنانياً دأب على حضور ندوته، ثم تمخضت قريحته عن أبيات يمدح فيها الرفاعي، وكانت القصيدة هزيلة جداً، وقد اختار لها روي الفاء، وسؤل له شيطان شعره أن يختم قصيدته بقوله: «فجعل لنا بخروف»، وتضاحك جلساء الندوة من شطر القصيدة هذا، ولكن الرفاعي شكره على مديحه، حتى إذا جاءت ليلة الخميس التالية «عجل بالخروف»، بناء على طلب الشاب الشويعر.



في الندوة .. الرفاعي الثاني من اليمين و د . عبدالقدوس الرابع

تغففا وإنكارا للذات، وأنفة من أن يقال: لعله أوعز إلى بعض أصحابه من رواد ندوته أن يقيموا ذلك الحفل.

أما ندوة الرفاعي فقد كانت مثلاً للندوات التي جاءت بعدها، وقد قلت فيها وفي الندوات التي كانت تنافسها:

وضرائر الحسنة قد يحسدنها

لكنها أبداً تُبْز ولا تُبْز

وكانت ندوة الخميس أدبية أكثر منها فكرية، وكانت

مقصد الأدباء من كل مكان حتى قلت فيها:

يتسابق الأدباء نحو نديها

من كرخ بغداد لقاهرة المعز

ولو نظر ناظر في دفتر التوقيعات الخاص بضيوف

الندوة لرأى أنه لا يكاد يقدم الرياض أديب كبير أو شاعر

مشهور أو مفكر معروف إلا زار هذه الندوة أو استرير في

خميستها المعتاد.

ولم يكن للندوة نظام معين ولم تكن هناك أحاديث

محددة أو محاضرات معدة، وإنما جرى العرف فيها أن

يكون شطرها الأكبر حديثاً أو أحاديث ذات شجون، حتى

إذا مضى نحو من ثلثي وقت الندوة بدأ الشعراء يتنافسون

كان الحسد يملأ قلبه ومضى يذكر الرفاعي بأيام فقره واضطراره إلى أن يكسب لقمة العيش له ولأسرته بالعمل في بعض المهن المتواضعة، وقد بالغ المتكلم في ذلك، واندفع بعض الغيورين من أصحاب الرفاعي الخالص يريدون إسكات المتهجم والرد عليه، ولكن الرفاعي ناشدهم ألا يقولوا شيئاً، حتى إذا جاء دوره مضى يشكر حاسده، ويذكر أنه أديب كبير وعلم مشهور، ولم يزد على ذلك إلا قوله: «ربما يكون المرء صغيراً ثم يكبر، وربما يكون كبيراً ثم يصغر».

وقد بلغ من تغففه وإنكاره لذاته أننا اخترنا لجنة من خاصة أعضاء ندوته وذلك لإقامة حفل لتكريمه بمناسبة مرور نحو من ربع قرن على إقامته لندوته، إذ كانت في مكة المكرمة قبل انتقال عميدها إلى الرياض، ونظم بعضنا عدداً من القصائد لحفل التكريم المنتظر، ثم فوجئنا بأن الأستاذ الرفاعي يرجونا إيقاف كل ما هيأناه، وإلغاء ما عزمنا عليه، وعبثاً حاولنا أن نعرف سبب ذلك.. بل ذهب الظن ببعضنا أن هناك اعتراضاً أميناً على عقد ذلك الحفل.. ثم عرفنا بعد شهور عديدة أن الرفاعي فعل ذلك



معارضة شعرية في الندوة الرفاعية بين الشاعر عصام الغزالي، و د . عبد القدوس أبو صالح

ونظم الغزالي مقطعة على حرف الزاي، وبلغ من إعجابه بها أنه جعلها في لوحة علقت في قاعة الندوة، وكنت مولعا بمعارضته فنظمت مقطعة على الحرف ذاته، وأخذ الغزالي مقطعتي فجعلها في لوحة أخرى علقت بجانب قصيدته، واطلع الناقد الكبير د. بدوي طبانة على المقطعين، ومضى في الندوة يقارن بينهما مفضلا أبياتي على أبيات الغزالي الذي أخذته حماسة الشباب إلى أن قال قصيدة هجا بها الدكتور طبانة هجاء مقذعا لا سبيل إلى ذكره.

وينشب المرض الخبيث أظفاره في جسد الرفاعي، ويشتد عليه، ويسافر للاستشفاء منه أكثر من مرة دون أن يعلم أحد من جلسائه بذلك، إذ يعود من سفره إلى ندوته مرحبا بجلسائه مؤنسا لهم ولا يعلم بمرضه إلا واحد أو اثنان من خلص أصحابه أو من كان يرافقه في أسفار الاستشفاء.

ويعود الرفاعي إلى المستشفى التخصصي في الرياض بعد أن يئس الأطباء من شفائه وقدروا أنه لم يبق له من حياته إلا أيام معدودات، ويعوده بعض أصحابه في أيامه الأخيرة، ويألمون لما يرون من حاله إذ كان يصحو حيناً ويفيب عن الوعي أحياناً، فإذا أفاق من إغمائه مضى يؤنسهم ويسألهم عن أحوالهم ويحدثهم عن بعض ذكرياته معهم، وكان بذلك يريد أن يواسيهم بدلا من أن يواسوه.

ولعله في أيامه الأخيرة نظم رائعته التي هي أروع ما قال من شعر، بل هي من أروع ما قيل في رثاء الذات الذي قلت عنه في مقال لي نشر في المجلة العربية منذ سنوات: إنه ليس شعرا أصدق من رثاء الشاعر لنفسه. فكيف إذا جاء هذا الشعر ذوبا من المشاعر التي ترتفع بالشاعر عن حدود الزمان والمكان لترفعه إلى آفاق الإنسانية وإلى الشعر العالمي الخالد.

واني لأقرأ قصيدته في رثائه لذاته فأجد صداها في نفسي لحنا جنائزيا لختام ملحمة الإنسان في الحياة، وما أروع بيت القصيد فيها وهو قوله:

حنت إلى عبق التراب جوانحي

لا غرو يشتاق التراب تراب  
اللهم ارحم تلك النفس الزكية، وأعل مقامها في

جنات النعيم ■

في حليتها، ويجلّون في مضمارها، وكان الشاعر الأستاذ عصام الغزالي يحرص على أن يعد لكل خميس قصيدة جديدة، وكان من أجود الشعراء الملازمين للندوة، وله فيها قصائد عجيبة يركب فيها أحيانا متون القوافي الصعبة، وكان بعض شعراء الندوة يحاولون معارضته، فيقاربون قصيدته حيناً، ويتخلفون عنها أحيانا، وكان من أعجب قصائده تلك القصيدة الذالية الرائعة التي يقول فيها:

هيئ يراعك واشحن

واسمع قصيدي واحتن

أفديك إن جادت عليك

يد القصيد بماخذ

إن كان ثمة شاعر

فوق اللحاق أنا الذي

وأنا الذي خضت البحور

قلاعي الكلم الشذي

كل الحروف عشقنني

فطعمت قبلة ذي وذي

وعارضت الغزالي في قصيدته الرائعة هذه كما عارضه غيري من شعراء الندوة الرفاعية، وجعلت عنوان معارضتي له «صدي القصيد» ومما قلته فيها:

يا شاعري شيطان شع

رك راح غير معوذ

يرتاد أودية القريض

ويجتني الشعر الذي

ما كان يورق في شفاه

البيد برعمه الشذي

أتروض حرف «الذال»

لم يقهر ولم يتلمذ

قلدته الدرر التي

تاهت بكل محبذ

أنشد فنحن الظامئون

لقبلة من ذي وذي

واهتف بأسماع الدنيا

هذا قصيدي فاحتن